الفقراء والأغنياء

في

ميزان الشريعة الإسلامية

الفقراء والأغنياء

في

ميزان الشريعة الإسلامية

إعداد
محمد عمر الحاجي
ماجستير في العلوم الإسلامية

دار البشير

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أوالنسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص. ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٢ـ٣٣]

صدق الله العظيم

وقـد يهلـكُ الإنسـان كثـرة مـالـه كما يُذبح الطاووس من أجل ريشه!!

* * *

يغطـي عيـوب المـرء كثـرة مـالـه وصُـدِّق فيمـا قـال ، وهـو كـذوبُ
ويُـزري بعقـل المـرء قلّـة مـالـه يُحمِّقـهُ الأقـوامُ ، وهـو لبيـبُ!!

* * *

غنيـتُ بـلا مـالٍ عـن النّـاس كلّهـم وليسَ الغنى إلاّ عن الشي... لا به!!

* * *

الإهداء

إلى جميع الإخوة، والأحباب، والأصدقاء، ورفاق الطفولة والشباب، وإلى كل من تعب في سبيل إصدار هذا الكتاب:

هـمُ الأحبّـةُ إنْ جـاروا وإنْ عـدلـوا ... فليس لـي معـدلٌ عنهـمْ ولـوْ عـدلـوا
وكـلّ شـيءٍ سـواهـم لـي بـه بـدلٌ ... عنهمْ ومالي بهمْ عنْ غيرهم.. بدلُ
إنّـي وإنْ فتّـوا فـي حبّهـمْ كبـدي ... بـاق علـى وُدِّهـم راضٍ بمـا فعلـوا
فليـتَ شعـريَ والـتّنيـا مفـرقـة ... بيـنَ الـرّفـاقِ وأيـامُ الـورى دولُ
هـلْ تـرجُـع الـدارُ بعـدَ البُعـدِ آنسـةً ... وهـلْ تعـودُ لنـا أيـامنـا.. الأولُ؟!

أبو عمر

الباب الأول

تمهيد

تمهيد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أحمد الله تعالى على حلمه بعد علمه ، وعلى عفوه بعد قدرته ، كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل ، وقوة كل ضعيف ، وغنى كل فقير ، ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده بلا عدد ، وقائم بلا عمد ، ودائم بلا أمد ، لا يشغله سائل ، ولا ينقصه نائل ، عظمت حكمته ، وجلّت قدرته ، يرغب عباده في طاعته ومعرفته ، فيقول في حديثه القدسي الجليل للكرام الكاتبين :

«إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة ، فإن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف» .

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله :

سيرته خير سيرة ، وعترته خير عترة ، وشجرته خير شجرة ، نبتت في حرم ، وبسقت في كرم ، هو الأميّ الذي علّم المتعلمين ، واليتيم الذي بعث الأمل في قلوب البائسين ، والهادي الذي قاد سفينة العالم الحائر في خضم المحيط ومعترك الأمواج ، إلى شاطىء الله رب العالمين ، إلى مكارم

الأخلاق وحميد السجايا ورفيع الشمائل ، فنادى على البشرية قائلاً :

«إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها .

قالوا : لمن يارسول الله ؟

قال : لمن طيّب الكلام ، وأدام الصيام ، وأطعم الطعام ، وصلى بالليل والناس نيام» .

فصلى الله عليك وسلم يا نبي الرحمة المهداة ، وعلى آلك الطيبين الطاهرين وصحابتك الغرّ الميامين والتابعين أجمعين ومن سار على الدرب إلى يوم الدين ، أما بعد :

فقد أورد بيان الله تعالى حكاية قارون الذي كان ـ حسب رواية ابن عباس ـ ابن عم موسى ـ عليه السلام ـ لكن طغيان الماديات وبريقها جعله ينحرف ويتنكب عن الطريق القويم ، ليصل إلى النتيجة السيئة .

وفي هذا السياق جاء الكلام عن طائفتين وقفتا موقفين مناقضين لبعضهما بعضاً :

١ـ طائفة ترى أن هذا الغنى الذي أُوتيه قارون هو مصدر السعادة ومصدر الحياة الكريمة ، فراحوا يتمنّون أن يكون لهم مثل ما كان لقارون . .

إنهم وقفوا عند الظواهر ولم يرفعوا الحجب لينظروا إلى ما وراء هذا البريق وهذه الزينة، لذلك وُصفوا وصفاً دقيقاً : إنهم يريدون الحياة الدنيا!! لكن هذه الطائفة بعد ما حلّ بقارون ما حلّ . . بعد أن خسف الله به وبداره وممتلكاته وزينته، الأرض ، كشفت لهم الحقيقة فصاحت : إن القضية ليست بالمال ولا بالمنصب ، إنما القضية أن الله بيده الرزق كله ، يعطيه من يشاء من عباده ، ويمنعه عمّن يشاء من عباده :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ

أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص : ٧٩] .

إلى أن قال : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [القصص : ٨١ـ٨٢] .

٢ـ وطائفة ثانية ، لما سمعت كلام الطائفة الأولى ، راحت تصحّح المفاهيم الخاطئة ، وتردّ الانحرافات العقلية ، ويريدون أن تُزان الأمور بالموازين القويمة ، فصاحوا بهم :

﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٠] .

إن جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون ، وهذا مصداق قول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح :

«يقول الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، واقرأوا إن شئتم :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧]» .

وعلّق ابن جرير الطبري على ذلك بقوله : ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة ، وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله عز وجل وإخباره بذلك ، وهكذا أهل الدنيا .

ذاك هو المشهد القرآني يحكي قصة قارون وموقف الناس منها ، فما هو موقف الناس اليوم من الغنى والفقر ؟!

بعد انفتاح الدنيا على المسلمين ، تغيّرت أحوالهم من فقر إلى غنى

نتيجة الفتوحات الإسلامية فانقسم الناس إزّاء ذلك إلى قسمين :

أ ـ فريق أول رأى أن ذلك حلالاً يجب أن نأخذ منه ما استطعنا ، فراحوا يسوقون الأدّلة من القرآن ومن السنّة على رأيهم.

ب ـ فريق آخر رأى أن ذلك فتنة لا بد من كبح جماح النفس عنها ، فراحوا يطلقون صيحات التحذير من شرور الدنيا ، وراحوا يحذّرون من بريقها وفتنها كل ذلك تحت شعارات الزهد والتصوّف.

أولئك فضلّوا الأغنياء والغنى ، وهؤلاء فضّلوا الفقر والفقراء!!

ودار جدال كبير حول ذلك ، إلى درجة أن كل فريقٍ منهم راح يعدّ الأدلة الدامغة ضد الفريق الآخر ، ووُضعت البراهين والحجج لدى كل منهما تثبت صحّة نظريته واعتقاده ، فما هي حقيقة الأمر ؟ وكان هناك تساؤلات عديدة وإشكالات متنوعة حول هذا الأمر ، من ذلك :

هل الإسلام يفضّل الفقر على الغنى ؟!

وهل الإسلام يمجّد الزهّاد المنقطعين عن الدنيا ، ويمنحهم الأوسمة العالية ؟!

وهل الإسلام يقدّم الفقراء في الدخول إلى الجنة على الأغنياء! ؟

وهل الإسلام يعترف بهذه الطبقية : طبقة أغنياء ، وطبقة فقراء! ؟

وهل الإسلام يعتبر السعادة بجمع الأموال ، أم بعدم جمعها ؟!

وهل الإسلام وضع ميزاناً دقيقاً لهذا الأمر ؟! أم أنه ترك المسألة خبط عشواء .

وهل الإسلام ترك وراثة الأرض للقوي والظالم دون قيد أو شرط ؟!

وهل وضع الإسلام أموراً تجعل الفقراء والأغنياء يتقاربون ، لتُردم تلك الفجوة ـ أو الهوّة ـ الحاصلة بينهم.. ؟!

ثم هل المسلمون اليوم : فقراء أم أغنياء! ؟

* * *

ولدى متابعاتنا لما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة وحديث العلماء العاملين نجد أن المسألة تتلخص بما يلي :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٥-١٦] .

لكن الدنيا المذمومة هنا ليست الدنيا بشكل إطلاقي ، إنما الدنيا التي تؤدي إلى البلادة والغفلة ، الدنيا التي يجري فيها الإنسان وراء الشهوات والملذات ، الدنيا التي تُبعد الإنسان عن واجباته التي رسمها له الله تعالى ، الدنيا التي يعشقها الجبناء والبخلاء وطلاب المال والشهوات فلا يبذلون مالاً لخوفهم من أن ينقص ذاك المال!! ولا يتكلمون بكلمة الحق لخوفهم على المكاسب والمطامع!! وينحصرون ـ بهذه الدنيا ـ في المأكل والمشرب والملبس والأثاث !!

هذه هي الدنيا التي يذمها الإسلام على لسان خير الأنام ﷺ إذ يقول :

«تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وطوبى لعبد مجاهد في سبيل ربه ، آخذ بعنان فرسه ، وإن كان في الساقة فهو في الساقة ، وإن كان في المقدمة فهو في المقدمة»[1] .

نعم إن الدنيا ليست شراً لذاتها ، إنما هي الخير كله لمن أراد أن يكون خيّراً ، وهي الشر كله لمن أراد أن يكون شرّيراً!!

---

(١) رواه البخاري.

مصداق ذلك ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رجلان من حيّ في قضاعة أسلما مع رسول الله ﷺ فاستشهد أحد الرجلين ، وأُخِّر الآخر سنة ، قال طلحة بن عبيد الله : فرأيت المؤخَّر منهما أدخل الجنة قبل الشهيد ، فتعجبت لذلك ، فأصبحت فذكرت ذلك للنبي ﷺ ، فقال :

«أليس قد صام بعده رمضان ؟ وصلى ستة آلاف ركعة ، وكذا وكذا ركعة في هذه السنة ؟؟ فما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض»[1] .

إنها الدنيا سلاح ذو حدين ـ كالسكين مثلاً ـ تستطيع أن تقشّر بها التفاح ، وتستطيع أن تقتل بها إنساناً!! فهل السكين بذاتها شرّ ؟!

فمن استطاع أن يستغلّ الدقائق الغالية في الحياة : في وجوه الخير والانفاق والعمل الصالح فذلك أمر ليس بالسهل في ميزان الله تعالى ، وهذا ما أخبر به سيد الكائنات محمد ﷺ بقوله :

«.. ألا أنبئكم بخيركم ؟ قالوا : نعم ، قال : خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم أعمالاً»[2] .

وفي رواية أخرى : أن رجلاً قال : يارسول الله أي الناس خير ؟

قال : **«من طال عمره وحسن عمله**

قال : فأيّ الناس شرّ ؟

قال : من طال عمره وساء عمله»[3] .

ولذلك لا بد من تصحيح المفاهيم الخاطئة التي ورثتها الأجيال دون تمحيص ولا تحقيق ، من ذلك الفهم الخاطىء لقول الله تعالى :

---

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه ابن حبان.
(٣) رواه الترمذي.

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٦] .

فقالوا : هذه مقارنة لنقيضين متقابلين!!

فإما المال والبنون ـ وهذه هي الحياة ـ وإما انتظار ذلك فيما عند الله ، ولن يجتمع النقيض الأول مع النقيض الثاني!!

لكن من قال : إن دخول الجنة لا يكون إلا للفقراء الصعاليك لأنهم حرموا الدنيا ؟!

ومن قال : إن من أُعطي المال كان ذلك دليل غضبٍ من الله عليه ، لأن نتيجته الحتمية الشقاء وسوء العاقبة ؟!

إن الإسلام ـ كما قلنا يرفض الجشع في الدنيا ، يرفض عبودية الإنسان للمال والنساء واللباس ، لكنه لا يرفض أن توضع الدنيا في الجيب ، في الصندوق ، في البنوك!! يرفض الإسلام أن يكون المال في القلب ، في المحراب ، في طريق نسيان الله وفضله وشكره!!

يرفض الإسلام المال حين يُسكر الإنسان ، وحين يجعله منحرفاً عن جادة الصواب لكن لا يرفضه حين يكونُ في يد العبد الصالح : ينفق منه في سبيل الله ، ينفق منه على الفقراء والمساكين والأرامل وابن السبيل . .

من الذي قال : إن الغنى ـ في الإسلام ـ جريمة ، وإن الفقر وسام رفيع المستوى ؟! من الذي قال : إن من ملك المال الكثير لن يدخل ملكوت الله! ؟ بينما من حُرم ذلك فُتحت أمامه أبواب السماء يدخلها كيفما يشاء ؟!

لا الغنى هو المشكلة ، ولا الفقر هو المشكلة ، إنما المشكلة أن تسخر الغنى للتكبر على عباد الله ، للإسراف والتبذير فيما حرّم الله ، للكنز والشح والبخل على المستحقين .

أو أن تجعل الفقر وسيلةً للإعتراض على الرزاق المنعم ـ سبحانه

وتعالى ـ أن تجعله باباً للحسد على الأغنياء.. أن تجعله لافتةً تعلن فيها : عدم عدالة الله بين خلقه!!

* * *

وهناك أمر يجب فهمه بدقة بالغة ، وفهم عميق ، وهو أن البون بعيد بين التمكين في الدنيا ، والقدرة عليها ، وبين الاغترار بالدنيا ، والحمق في تقديرها .

فالقرآن الكريم يطالبنا بفهم آيات الله ـ في الكون والنفس ، وهذا هو التمكين ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٠] .

وهذا التمكين يعني سيادة الإنسان في هذا العالم ، وما على عناصر الكون الأخرى إلا أن تكون طائعة خادمة لهذا السيد!!

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

أما الاغترار بالدنيا والحمق في تقديرها واللهث وراء لذاتها ، فهذا أمر ناتج عن جهلٍ مطبق لدى الإنسان ، وعن غرق في مستنقعات أوهام بقائه في هذه الدنيا .

* * *

أما القضية الأخطر من ذلك : فهي أن الإنسان إذا كان جاهلاً فاعترف بجهله وتقصيره فلا بأس من ذلك ، أما أن يفلسف جهله ويدعمه بأدلة منحرفة عن مقاصدها ، فهنا يكمن الخطر!!

ونتيجة ظروف معقدة نشأت فئة تدعو إلى تطليق الدنيا وعدم الاقتراب منها وإلى أن كل شيء شرّ فيها ، وأن من أُعطي القليل أو الكثير منها فقد

ساء مصيره ، وأن من أهم أسباب رضى الله على إنسان ما أن يحرمه الدنيا كلها!!

لذا يجب أن ينزوي الناس في المغارات والكهوف بعيداً عن الأسواق والأعمال !!

ثم راحوا يفلسفون ذلك بأنه الزهد ، والإسلام الحق ، وطريقة الأنبياء ، لكن هذا أمرٌ خطيرٌ يعصف بكثير مما أراده الإسلام : من إعمارٍ للدنيا ، من اقتناء الوسائل التي تصل بالإنسان إلى العبادة ، فما الرّد على ذلك ؟

صحيح أن الأنبياء ـ غالبهم ـ عاشوا حياة الفقراء ، وصحيح أن رسول الله ﷺ لم يقف مرة ليصلح دنياه ـ مسكن وأثاث .

لكن الأنبياء لم يفعلوا ذلك ليتركوا العمل ويتركوا إعمار الدنيا ، والنبي عليه الصلاة والسلام لم يترك ذلك إلا لأن شغل تبليغ الدعوة قد أخذ أكثر وقته .

ومن جهة أخرى : فالنبي عليه الصلاة والسلام كان أمّياً ، فهل إذا قام واحد اليوم وقال : أنا أريد أن أطبّق سيرة رسول الله لأفوز في الدنيا والآخرة ، فلا بد أن أكون أمّياً ؟!أهذا هو الكلام المنطقي ؟!

رسول الله ﷺ كان أمّياً ليكون دلالةً واضحةً على عدم علمه ومعرفته بالقراءة والكتابة ، فكيف يكون القرآن وقتها من تأليفه ؟!

إنّ أمية الرسول لتلقم كل متفلسف في ذلك حجراً يسدّ فاه ، أما أن يأتي واحد فيدعي أنه بأميته يقتدي بالرسول فذلك جهل مطبق .

ذلك لأنه بادعائه هذا يخالف القرآن وقول النبي العدنان : وذلك بالحض على العلم والتعلم .

كذلك فيما يتعلق بمعيشة الرسول وفقره وزهده ، فهي دليل واضح على

أنه كان لا يطلب الجاه ولا المنصب ولا الثروة ، إنه لم يدع الناس إلى الإسلام من أجل ذلك ، إنما ناداهم إلى طريق الله المستقيم ، ثم قال لهم :

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى : ٢٣] .

إنه لا يبغي من وراء دعوته أي شيء من حطام الدنيا الفانية ، لذلك جاءت سيرته العطرة خير ترجمانٍ على ذلك القول .

أما أن يأتي ـ المستصوفة ـ ليقولوا : نحن فقراء ، ومساكين ، ولا نهتمّ بالدنيا نحن نسير على خطى رسول الله فهذا الأمر مخالف لمنهج القرآن وسيرة رسول الله ﷺ ، وإلا ما معنى قوله صلوات الله عليه :

«ما من مسلم يغرس غرساً ، إلا كان ما أكل منه صدقة ، وما سُرق منه له صدقة ، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة ، إلى يوم القيامة»[1] .

أليس هذا معناه : أن انطلقوا إلى العمل في الزراعة فلكم الأجر الكبير ؟

وما هو المعنى المقصود في قوله ﷺ :

«سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته : من علّم علماً ، أو كرى نهراً ، أو حفر بئراً ، أو غرس نخلاً ، أو بنى مسجداً ، أو ورّث مصحفاً ، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته»[2] .

أو ليس هذا معناه : أن انطلقوا في الدنيا ، واعملوا بها ، وقدّموا كل ما تستطيعونه من أعمال البر والإحسان ـ حتى لو كانت في نظركم قليلة تافهة ـ ؟!

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وللحديث روايات عديدة.

(٢) من الترغيب والترهيب للمنذري.

وما هو المعنى المقصود في قوله صلوات الله عليه :

«التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصدّيقين والشهداء»[1] .

بل ذهب الفقهاء إلى القول : يُعفى من قيام الليل ـ كما يعفى الفرسان المقاتلون في ساحات القتال طيلة النهار ـ العاملون في حقول التجارة والكدّ !!

انطلاقاً من فهم الآيات القرآنية ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [المزمل : ٢٠] .

أليس المعنى المقصود من ذلك : أن اعملوا ، واكدحوا في جميع أنواع المكاسب ـ زراعة وصناعة وتجارة وتعلم وتعليم .

لكن شريطة أن يكون الهدف هو رضى الله تعالى : فلا تغش ولا تكذب ولا تحلف ولا تخادع ولا تدلّس ولا تزور ولا ...

هكذا إذن : المادة مع الروح ينطلقان لتسير المسيرة ، لذلك كما تُقدس الروح تقدس المادة ، ولا انفصام بينهما أبداً .

والويل للأمة التي تترك الروح وتلهث ـ جريان الوحش في البرية ـ وراء المادة ، ووقتها ستكون النتيجة الشقاء الأبدي ، والتعاسة التي لا سعادة بعدها . .

وهذا ما نراه بأم أعيننا اليوم في مجتمعات الغرب .

وكذلك لو أُخذت الروح وتُركت المادة فستكون النتيجة التخلف والتبعية للآخرين والحاجة لهم حتى في أكل الرغيف!!

---

(١) رواه الترمذي.

وبهذا الفهم سار صحابة رسول الله ﷺ على الخط المحمدي :

فكان الواحد منهم بطلاً في معمعة المعارك ، حاملاً سيفه ، ممتطياً حصانه ، مندفعاً إلى المكان الذي يقف فيه العدو ، وفي الليل تراه في محراب عبوديته ساجداً خاشعاً ذاكراً داعياً متضرعاً إلى الله .

وترى الآخر في النهار تاجراً في أسواق المدينة أو مكة أو الكوفة أو دمشق ، يقارع اليهود في الأسواق ، لا يدع فرصةً إلا وينتهزها ليمارس تجارته وبيعه وشراءه وفي الليل يعدو إلى البيت . . ليحمل بعض أرباحه إلى الفقراء والمساكين . . وترى الواحد منهم يصل إلى سدّة الحكم ، يجلس في الناس يقضي حوائجهم ويحلّ مشاكلهم ، وفي طريق عودته توقفه امرأة عجوز فيقف معها على قارعة الطريق وهي تشكو إليه حالها وتبث إليه همومها!!

إنهم سمعوا من حبيبنا محمد ﷺ قوله : «**إن من الذنوب ذنوباً لا يكفّرها الصلاة ولا الحج ولا العمرة ، ولكن يكفرها الهموم في طلب العيش**»[1] .

ففهموا وقتها أن العمل وكسب لقمة الحلال ضرب من ضروب الأعمال الحسنة ، بل هو نوع من أنواع الجهاد ، فانطلقوا يعمرون الأرض ويهتمون بالزراعة والتجارة والعلوم ، لذلك سطّر التاريخ سيرة حياتهم بحروف من نورٍ على صحائف من ذهب!! فماذا عنا اليوم! ؟

* * *

ولا بدّ من ملاحظة شيء آخر ، هو : أن الإسلام لا يهتم بالكم ، إنما يهتم بالكيف ، لذلك من ظن أن القلة تكون سبباً للضعف والهوان والهزيمة فهو مخطىء ، ومن ظن أن من لا يملك المال الكثير فليس عليه الانفاق

---

(١) رواه أبو نعيم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ

والتبّرع فهو مخطىء ، لأن الميزان الإسلامي يقدّر الأشياء بالكيف لا بالكم ، يقدر الأشياء بالجنس لا بالمقدار ، بالنوع لا بالعدد ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة : ١٠٠] .

هذا الميزان الفريد هو الذي قصده العقاد بقوله :

إنا نريد إذا ما الظالم حاق بنا عدل الأناسيِّ ، لا عدل الموازين
عدل الموازين ظلمٌ حين تنصبها على المساواة بين الحرّ والدّون
ما فرقّت كفة الميزان أو عدلت بين الحليّ وأحجار الطواحين!!

ألم ينتصر المسلمون الأوائل : وهم الفقراء القلّة ، على الأقوياء الكُثر ؟

ألم يقل النبي ﷺ قُبيل غزوة بدر : «**اللهم إنهم جياع فأطعمهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم ، اللهم إنهم حفاة فاحملهم**» .

نعم لقد استطاع الحفاة الجياع الفقراء الضعفاء أن يفتحوا الدنيا ويمدنوها ، ويقيموا ميزان العدل بين الشعوب ، وأن ينسفوا الظلم كله ليرفعوا لافتةً كُتب عليها :

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس : ٨٢] .

* * *

هذا هو الهدف من هذا الكتاب أن نتبين الميزان الحقيقي للإسلام في ذلك ، لذا جاءت أبواب الكتاب على الشكل التالي :

- الإسلام لا يعترف بالطبقية ، ولا يكرسّها.
- مفاهيم عامة : الفقر . الغنى . الميزان.
- ما هو الميزان الصحيح ؟!
- الفقراء ـ مالهم ، وما عليهم

ـ الأغنياء ـ مالهم ، وما عليهم ـ

ـ أغنياء وفقراء من التاريخ

ـ السعادة تولد من المال!!

ـ وسائل التقريب بين الأغنياء والفقراء.

ـ هل المسلمون اليوم ـ فقراء أم أغنياء ؟!

ـ الخاتمة.

فإن حالفتنا الحقيقة في ذلك العمل المتواضع ، فهذا من فضل الله ومنته ، وإلا فهو من أنفسنا الأمارة بالسوء.. نسأل الله أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم .

أما بعد :

كان أبو الحسن الشاذلي كثيراً ما يدعو الله قائلاً :

اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها ، وذكّرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها ، واحملنا على النجاة منها ومن التفكر في طرائقها .

آمين ، آمين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أبو عمر